وافتتنوا بالدنيا

من الراجح أن محمد علي باشا كان يميل في ذات نفسه إلى التخلص من الزعامة الشعبية التي أجلسته على قمة المجد، لأن هذه الزعامة كانت في هذه السنوات الأولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن؛ تستقصي عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة، وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم، ولأن محمد علي كان مدينًا للزعامة الشعبية بولاية الحكم وتثبيته، وتذليل العقبات التي اعترضته، وإحباط الدسائس والمؤامرات التي تدبر له، فإن السلطة في ذاتها من شأنها أن تطغي صاحبها، وتنزع به إلى الاستبداد بالأمر، فمحمد علي بعد أن استقر في الحكم وثبتت أقدامه، طمحت نفسه إلى الاستبداد بالأمر، وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شئون الحكم، وسعيهم في دفع المظالم عن الناس، كما كان لاظ بك أيضًا يستشيط غضبًا من السيد عمر مكرم وباقي العلماء، ويشعر أنهم يقررون كل شيء ويديرون جميع أمور الدولة، ويبدو أن الباشا أيضا قد انتهى من حاجته لهؤلاء الزعماء، وقرر أن يتخلص منهم، ولكن بأسلوب ماكر وخبيث، فقال يومًا للاظ بك:

– أريدك يا لاظ بك أن تُبطِل مسموح المشايخ، وتعفي الأراضي التي يملكونها من الضرائب تمامًا..

- لم أكن أتوقع ذلك منكم يا أفندينا؛ فكم أكره هؤلاء الزعماء، ولكن كما تشاء أيها العزيز.

- لا تقلق يا لاظ؛ فليس الأمر كما ظننت، إنما هي خطة ستؤتي ثمارها على ما أظن.

- فهمت يا أفندينا، ولكني لم أدرك تمامًا المقصود من ذلك..

- أريد أن أشغلهم بالدنيا يا لاظ بك، وأورطهم معي فيما يتم جبايته من أموال، وقد يفقدون تعاطف الرعية.

- ولكن ليسوا جميعًا من ملاك الأراضي يا أفندينا!

- عندما يعرفون هذه الامتيازات الجديدة سيسعون لامتلاك مزيدٍ منها.

- ولكنني على يقين يا أفندينا أن بعضهم لن يتورط في كل هذا، وخاصة السيد عمر مكرم.

- أعرف يا لاظ، ولكن عدم تورطه سيجعله نظيفًا بين الملوثين؛ فيزداد كرههم له وحقدهم عليه؛ فيبحثون له عن ذريعة للتخلص منه وإبعاده.

- وعندها سيلجئون إليك يا أفندينا لتنقذهم منه، أليس كذلك؟

- عفارم يا لاظ بك؛ لقد بدأت تفهم، وسوف أنفيه خارج القاهرة بعيدًا عن الأحداث، وهذا أقصى ما يمكن فعله مع رجل مثله محبوب من الجماهير.

- وهل سترفض في البداية يا أفندينا طلب المشايخ وتدافع عن السيد عمر؟

فضحك الباشا قائلًا:

- سأجعلهم يلحون عليَّ يا لاظ..

وأسرع لاظ في إعلان قرارات الباشا الجديدة وانتشرت بين الناس. وبالفعل ومع مرور الوقت تحقق كثيرٌ مما توقعه الباشا مع عدد لا يستهان به من العلماء، وقد غضب الجبرتي عند حدوث ذلك وكتب عن هذا الموضوع ما يلي:

"ولما انقضى هذا الأمر، واستقر الباشا واطمأن خاطره، وخلص له الإقليم المصري، فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافي البلاد التي التزموا بها، واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه، وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها بدون القيمة، وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم، إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء، واتخذوا الخدم والأعوان، وانقلب الوضع فيهم بضده، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام، وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والحسد والحقد على الرياسة.."

أما السيد عمر مكرم فكما توقع لاظ بك؛ لم يخضع لمغريات محمد علي باشا، فلم تَلِنْ قناته للمنافع والمغريات، ولم تزعزعه الكوارث والتهديدات، وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتى آخر نسمة من حياته، وأيده في مسلكه بعض الشيوخ، ولكن أغلبيتهم قد انصرف إلى أسباب المنافع، والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور. وكان طبيعيًّا أن محمد علي بعد انفراده بالحكم ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم على احترامها، فكان عليه أن يزيح السيد عمر مكرم ثم ينفيه إلى دمياط بعيدًا عن العاصمة، مستغلًا الاختلافات التي حدثت بين العلماء عندما فرض محمد علي ضرائب على الأوقاف، واعتراض السيد عمر على ذلك فاستبدله الباشا بالشيخ محمد السادات، ليصبح نقيبًا للأشراف بدلًا عنه.

وهكذا تم إبعاد السيد عمر تنفيذًا لتعليمات مكيافيللي التي تنصح الأمير أن يطيح بكل الذين ساعدوه في الوصول إلى الحكم، ووجد محمد علي تشجيعًا وتأييدًا – بل تحريضًا – من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم، مقابل نِعَم رخيصة أغدقها عليهم، ثم استردها منهم بعد أن استخدمهم في التآمر على زعيمهم، وعندما ذهبوا إليه محتجِّين على إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوى أقذع العبارات، وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه، ثم يعجز عن استردادها مرة أخرى بعد أن تكون النفس قد تلوثت وفسدت. وبَدَهِيٌّ أن زعماء الأمة الشرفاء وعلى رأسهم السيد عمر مكرم، لم يحسبوا حسابات لذلك اليوم اعتمادًا على الجماهير، أو استنادًا إلى ثقتهم في

حسن نية محمد علي، ولا يمكن في الحياة السياسية الاعتماد على حسن نية الحكام، فالسلطة في حد ذاتها مفسدة، ومهما كان ورع الشخص، فإن السلطة ربما تفسده، وكان من الضروري تطوير النظام السياسي بشكل يحمي الأمة من تقلبات النفوس أمام خمر السلطة، وإغراء القوة، وكان الزعماء في ذلك الوقت بالذات يمتلكون حركة جماهيرية حققت من القوة والاتساع ما يكفل لها ذلك لو أرادت، وكان لابد أيضًا من تحويل الحركة الجماهيرية إلى مؤسسة ذات تنظيم يكفل لها الاستمرار، ولا يجعلها عرضة للمؤامرات وتقلبات بعض المشايخ تحت إغراء المال أو الحسد.

وبتلك المؤامرات استطاع محمد علي أن يتخلص من السيد عمر مكرم، ليس هذا فحسب، بل إنه باستخدام بعض المشايخ في الإيقاع بالسيد عمر مكرم، كان قد أجهز على المؤسسة الأزهرية بكاملها، فالجمهور رأى في عملهم معنى الخيانة والغدر، محمد علي نفسه احتقرهم بعد أن قبضوا المال لقاء عملهم هذا، وهكذا استطاع محمد علي الداهية أن يتخلص من الزعيم، وأن يسقط هيبة العلماء أمام الجماهير، وربما يكون هذا العمل قد أفاد محمد علي على المستوى الشخصي، ولكن هذا العمل كان التوطئة الأولى للقابلية للاستسلام، فَفَصْمُ العلاقة بين العلماء وبين الجماهير قد أفقد الطرفين إيجابيتهما، وباتت الجماهير بلا قيادة شرعية تعمل من خلالها في التصدي للقهر أو الاستبداد، فلو كان محمد علي قد اغتال عمر مكرم أو اعتقله أو قتل العلماء أو سجنهم، لكان تخلص من العلماء، ولكنه لم يكن قد قضى على

كيان هام كان ضروريًّا للصمود، وسواء قصد محمد علي ذلك أم لم يقصد، فإن النتيجة كانت مروعة على كرامة الشعب بعد ذلك؛ فقد تم كسر إرادته، وهكذا نجحت خطة الباشا التي وضَّحها للاظ بك نجاحًا ساحقًا، وتخلص من الزعامة الشعبية، وكان الباشا يشعر براحة كبيرة عند التحدث إلى لاظ؛ فهو يحدثه بما في نفسه، وهو ما لا يستطيع فعله مع شخص آخر، وحتى مع أقرب المقربين منه وحتى أولاده، وقد حاول محمد علي أن يفهم سر ذلك، بل ولام نفسه عليه، فكيف يفضي بكل أفكاره وأسراره إلى لاظ بهذه البساطة، ولكنها الثقة التي بلا حدود لشخص يكن لك من الحب والإعجاب ما لا يمكن وصفه وينبهر بكل ما تفعله.